أشكال الخطاب في القرآن الكريم والعبرة الأخلاقية

د. الهادي المبروك سالم

قسم الدراسات الإسلامية، كلية الآداب ـ جامعة طرابلس

المقدمة:

لقد خلق الله الخلق وأبدع، فسبحانه من مُصَوِّر بديع، جعل مخلوقاته على هيئات وأشكال لا يحصيها عدد ولا وصف، سخرها؛ للتسبيح بحمده وتقديسه ـ لا إله إلا هو ـ صَوَّر الإنسان في أحسن صورة، وزَيَّنَه بالعقل، وأَمَدّه بلسان يفصح به عما يريد، ويتواصل به مع بني جنسه، ورتب على هذا العقل وهذا اللسان أحكاما مصيرية؛ فبعقله يقبل دعوة الرسل عليهم السلام أو يرفضها، وبلسانه يقر ويعترف بهذه الدعوة أو ينفيها، بلسانه يسبح بحمد الله ويلهج بالدعاء صباح مساء، أو ينطق بكلمة الكفر والعناد فيرمى في قعر جهنم وبئس المهاد.

وأول ما خلق الله أبا البشر آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ علمه لغة التخاطب، قال تعالى في محكم التنزيل: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٣١﴾[1].

وهذه اللغة تطوَّرَتْ وتفرَّعَتْ مع مرور الزمن، وتشكل خطابها بأشكال

1) سورة البقرة، الآية 31.

متعددة، وسوف يدور حديثنا في هذا البحث على الخطاب وما يحمله من قيم أخلاقية؛ فهي أساس الدين ومنشؤه، ونبينا الكريم محمد ﷺ أخبرنا أنه إنما بُعِثَ ليتمم مكارم الأخلاق، وكما هو شأن الديانات السماوية؛ الدعوة إلى توحيد الله، فقد كان مرتكز رسالة الإسلام في أصلها غرس التوحيد في قلوب الناس، ومن ثَمّ كان الخطاب الديني موجها إلى هذه المهمة حتى يخرج الناس من ظلام الكفر إلى نور الإيمان، ولما استقر الإيمان بدأت التكاليف تتنزل على محمد ﷺ من رب العزة وهو يأمر بها الناس.

والناظر في التكاليف الشرعية في عمومها يرى أنها في حقيقتها تنبع من مكارم الأخلاق، فتوحيد الله والتوجه إليه بالعبادة هي من تمام الأخلاق، والمحافظة على حقوق الغير ومعاملتهم بالحسنى من تمام الأخلاق، وطاعة الوالدين كما أمر رب العزة من تمام الأخلاق... إلخ.

ولقد بَيَّن لنا القرآن الكريم في مظهر رائع كيف نربط علاقتنا بالآخر بداية من الوالدين، وانتهاء بالمجتمع البشري في عمومه، فالحوار معهم مرسوم بضوابط شرعية لا يجوز لنا مجاوزتها.

وبين لنا القرآن الكريم في مواضع متعددة ضرورة اختيار الكلام الطيب الحسن، فهو مصدر عظيم للنجاح وسبب في تكوين مجتمع راق؛ لهذا عني به المربون والمصلحون، ودعوا إلى حسن مخاطبة غيرهم ومراعاة اللهجة اللينة[1] حتى تنشرح صدور المتلقين، ويصبحون مستعدين لقبول ما يلقى إليهم من توجيهات ومواعظ، يقول المولى سبحانه وتعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾﴾[2]، هذا بيان من الله للناس بأنْ يقولوا الكلام الحسن؛ لأن

1) روح الدين الإسلامي، عفيف عبدالفتاح طبارة، ص295.
2) سورة الإسراء، الآية 53.

الشيطان لهم بالمرصاد يحاول إفساد العلاقات.

ويبين الله لنبيه محمد ﷺ رحمته عليه بسعة الصدر والمعاملة الحسنة وهي سر اتباعه والتصديق بدعوته، قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ﴾[1]، فالآية ترشد المؤمنين إلى اعتماد الرفق واللين في التعامل مع الناس، واجتناب قَسْوة القلبِ والغِلْظة في معاملتهم لهم وبذلك تدوم العشرة الطيبة وتسود المحبة بينهم.

مشكلة البحث:

المشكلة التي يحاول الباحث توضيحها وإيجاد الحلول المناسبة لها تتمثل في: الخطاب المعاصر وما يفتقر إليه من قيم أخلاقية، وسوف تكون المرجعية في ذلك القرآن الكريم وما جاءت به السنة النبوية، وسوف يكون التركيز في عمومه على خطاب نبي الله إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وذلك من خلال الحوارات الدعوية التي دارت بينه وبين أبيه[2] «آزر»، وبينه وبين ابنه إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ.

والسبب في اختيار هذا الحوار واعتباره نموذجا يحتذى به في الدعوة والحوار من أجل إصلاح المجتمع، وذلك لما تميز به نبي الله إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: من صبر وتحمل، وتنوع في أسلوب إلقاء الحجة، ومخاطبة ود القلوب النافرة من هدي الله، ومحاولة ردها إلى الطريق المستقيم، وقد رسم عَلَيْهِ السَّلَامُ خطوطًا وأساليب دعوية رضية يجدر بالمجتمع الإسلامي وخاصة المصلحين منه بجميع صفاتهم أن يطلعوا على دعوة أبيهم إبراهيم ويحذوا حذوه، ففيها كل الخير.

ويمكن صياغة مشكلة البحث في التساؤلات التالية:

1) سورة آل عمران، الآية159

2) هناك من يرى أن آزر هو عم إبراهيم وليس أباه وما نرمي إليه في هذا البحث هو التحدث عن مقام الأبوة والعم في مقام الأبوة، والعرب تطلق لفظ الأب على العم والجد.

1- هل الحوار المعاصر بين أبناء المجتمع لا يتفق وتعاليم الدين؟

2- هل عدم اتفاق الحوار مع تعاليم الدين مرده الضعف في العقيدة؟

سيحاول الباحث في ثنايا هذا البحث تحقيق الأهداف التالية:

1- الحوار المعاصر لا يتفق وتعاليم الإسلام.

2- عدم اتفاق الحوار مع تعاليم الدين مرجعه العزوف عن تعاليم الدين التي بينها لنا القرآن الكريم.

سوف يسير الحديث في هذا البحث من خلال استعراض النموذج الذي عرضه لنا القرآن الكريم، والمتمثل في خطاب سيدنا إبراهيم الخليل ـ عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام ـ فالنص القرآني يطرح من حيث المضمون وبشكل مباشر الكيفية التي ينبغي أن تحكم العلاقة الأبوية بشقيها: علاقة الأب بالابن، وعلاقة الابن بأبيه؛ لأن هذه العلاقة الثنائية هي الأساس الذي توضع عليه ركيزة المجتمع، فإذا كان هذا الأساس متينا سلمت النتائج وصلح المجتمع، والعكس يثبت العكس.

لقد جاءت التعاليم الربانية في آيات صريحة، حادة المقاطع، وصارمة، لا تقبل التأويل، قال تعالى: ﴿۞وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًاۚ إِمَّا يَبۡلُغَنَّ عِندَكَ ٱلۡكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوۡ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ وَلَا تَنۡهَرۡهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوۡلٗا كَرِيمٗا ٢٣﴾[1].

هذا الخطاب القرآني يحمل مضمونا مباشرا آمرا ناهيا ومثبتا لأركان وطبيعة السلوك، اشترط على العباد أن تكون العبادة خالصة له، ومن تمام عبادته: طاعة الوالدين في غير معصيته، ونهى عن أذية الوالدين والتأفف

1) الإسراء (23)

منهما، بل أكد على ضرورة مخاطبتهم بالحسنى، والدعوة لهما بالرحمة.

والنص القرآني يطرح نمطا من أنماط التوجيه الأخلاقي لعلاقة الابن بأبيه، وذلك من خلال طرح الأسلوب الأنموذج الذي يجسده الأنبياء في علاقتهم بآبائهم، وما يلتمسونه من نوع الخطاب المجسد للتعاليم الربانية؛ وهم يخاطبون آباءهم فيما يخص الدين والدنيا.

نقترب من طرح العلاقة الأبوية التي صورها القرآن الكريم من خلال فحص خطاب نبي الله إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لأبيه «آزر»، وخطابه لابنه إسماعيل وفق المطالب التالية:

1- خطاب النبي إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لأبيه الكافر «آزر».

2- خطاب «آزر» لابنه إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

3- خطاب الأب المؤمن إبراهيم لابنه المؤمن إسماعيل عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ.

المطلب الأول: خطاب النبي إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لأبيه:

يقدم سيدنا إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ خطابا يتميز بالإطناب متدرجا في محاولة إقناع أبيه نبذ عبادة الأصنام، فقد جاء خطابه في أربع جمل مترابطة متدرجة، افتتح الخطاب بالنداء مع أن الحضرة مغنية عن النداء؛ قصدا لإحضار سمعه وذهنه لتلقي ما سيلقيه عليه[1]، قال تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا ﴿٤٢﴾﴾[2]. فافتتح إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ خطابه بنداء الأبوة «يا أبت»، ودقة العبارة تتمثل في تعويض ياء الإضافة في أبي بالتاء

1) ينظر محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، (الدار التونسية للنشر)، 113/16.

2) سورة مريم، الآية 41 و42.

«يا أبت»، وهذا التركيب فيه أدب ولطف، وفيه استعطاف، «إيماء إلى أنه مخلص له في النصح»[1]. وقد أنكر عليه عبادة غير الله، واتخاذ ما لا يضرّ ولا ينفع، وأورد الزمخشريُّ في تفسيره: «العبادة هي غاية التعظيم، فلا تحق إلا لمن له غاية الإنعام: وهو الخالق الرازق، المحي المميت، المثيب المعاقب، الذي منه أصول النعم»[2].

وللعاقل أن يتساءل وينكر على من له عقل وبصيرة كيف يتوجه بالعبادة والخضوع والخنوع إلى من لا يضر ولا ينفع ولا يستطيع أن يدفع عن نفسه بلاء، وهذا ما جعل نبي الله إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ يتخذ أسلوبا بلاغيا استفهاميا خرج إلى الاستنكار، فهو في سؤاله لا يطلب إجابة عن استفهامه.

أورد الشيخ محمد الطاهر بن عاشور في تفسيره للآية المذكورة القول التالي: «قال الجد الوزير فيما أملاه عليّ ذات ليلة من عام 1318هـ فقال: «عَلِمَ إبراهيمُ أنّ في طبع أهل الجهالة تحقيرهم للصغير كيفما بلغ حاله في الحذق، وبخاصة الآباء مع أبنائهم، فتوجه إليه بخطابه بوصف الأبوة إيماء إلى أنه مخلص في النصيحة، وألقى إليه حجة فساد عبادته في صورة الاستفهام عن سبب عبادته وعمله المخطئ، منبها على خطئه عندما يتأمل في عمله، فإنه إن سمع ذلك وحاول بيان سبب عبادته أصنامه لم يجد لنفسه مقالا ففطن بخطأ رأيه وسفاهة حلمه، فإنه لو عبد حيا مميزا لكانت له شبهة ما»[3].

ويرتب سيدنا إبراهيم إلقاء حججه حتى تكون بليغة مفحمة للمتلقي بحيث يعجز عن الجواب كما بين القرآن ذلك في مواطن عديدة:

---

1) ابن عاشور، مصدر سابق

2) محمود بن عمر بن محمد الزمخشري، تفسير الكشاف (ط؛ دار الكتب العلمية: بيروت 1995) 18/3

3) محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، 114/16.

منها محاورة النّمْرود، ومنها هذه المحاورة بينه وبين أبيه، فكانت بداية حجته راجعة إلى الحس: ﴿يَـٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ﴾، وما دام هذا المعبود منتفية عنه هذه الصفات الواجب توافرها فهو لا يستحق العبادة فكيف يجيب دعوة الداعي، وكيف يكشف السوء عن الغير وهو يتصف بالنقص والعجز.

ويتتابع الخطاب النبوي محاولا كشف النفور والصدود الذي في نفس أبيه عن تلقي النصح والإرشاد من ابنه بقوله: ﴿يَـٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا ۝٤٣﴾. بين إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ في خطابه السابق عدم جدوى عبادة الجمادات، ثم يلقي إلى أبيه ما يفيد أن الذي جاء به ليس من عنده، إنما هو وحي من لدن رب العالمين، ويطلب منه أن يتبعه ويستمع إليه حتى يهديه إلى الصراط المستقيم.

وهذه الهداية إنما هي بمشيئة الله ﴿قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾ فابتعد بذلك عن استفزاز أبيه، «فلم يَسِمْ أباه بالجهل المفرط، ولا نفسه بالعلم الفائق، ولكنه قال: إن معي طائفة من العلم وشيئا منه ليس معك، وذلك علم الدلالة على الطريق السوي فلا تستنكف، وهب أني وإياك في مسير وعندي معرفة بالهداية دونك، فاتبعني أُنجِكَ من أن تضلّ أو تَتِيه»[1].

فهذا العلم جاء من عند الله وليس انتقاصا من الأب أن يبلغه ابنه بما جاء من عند الله من علم.

ثم يردف خطابه السابق بقوله: ﴿يَـٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا ۝٤٤﴾[2]. فيتخذ تركيب النداء نفسه (يَـٰٓأَبَتِ) تحببا

1) تفسير الكشاف 18/3.
2) سورة مريم الآية 44.

واستعطافا، والغاية من هذا النهي الذي ورد في صورة التماس بتجنب ما قد يصيب الأب من عذاب الرحمن فيما لو استمر بعبادة الشيطان، والممعن النظر في تركيب الجملة التي وردت على لسان إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ يلحظ أنه أظهر اسم الشيطان في مقام الإضمار، فقد كان ممن الممكن أن يعبر عنه بالضمير بقوله: إنه كان للرحمن عصيا، ولكنه أظهره، وذلك لإيضاح إسناد الخبر إلى المسند إليه، ولزيادة التنفير من الشيطان؛ لأنه في ذكر صريح اسمه تنبيها إلى النفرة منه، ولتكون الجملة موعظة قائمة بنفسها[1].

لقد ورد النهي عن عبادة الشيطان لأن عبادته عين الكفر والضلال، وقد توعد الله سبحانه وتعالى من يشرك به بالعذاب الشديد وعدم المغفرة، وعلى الرغم من سلسلة الجنايات التي ارتكبها الشيطان في حق البشرية «إلا أن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ لإمعانه في الإخلاص ولارتقاء همته في الربانية، لم يذكر من هذه الجنايات إلا التي تختص منها برب العزة من عصيانه واستكباره، ولم يلتفت إلى معاداته لآدم عَلَيْهِ السَّلَامُ وذريته، كأن النظر عظم في ما ارتكب من ذلك فغمر فكره وأطبق على ذهنه»[2].

ثم يورد النداء مرة رابعة مفتتحا بصيغة (يَٰٓأَبَتِ) قال تعالى: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا ٤٥﴾[3]. فأكد من خلال تكرار النداء المحذر ما أفاده النداء الأول والثاني والثالث.

فلما قرر له أن عبادته الأصنام هي عبادة للشيطان انتقل إلى تخويفه بتوقع الحرمان ممن صفته الرحمة، فالتعبير بهذه الصفة كما يذكر ابن عاشور

1) محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، 114/16.
2) ينظر الزمخشري، تفسير الكشاف، 3/ 18_19.
3) سورة مريم، الآية 45.

تدل على فظاعة الجرم إلى حد أن يحرمه من رحمته من شأنه سعة الرحمة[1].

وبالرغم من أن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ يخاطب عابدا للأصنام متبعا لهوى الشيطان فإنه لم يخرج عن جماليات الأدب الجم وكيف لا؟ وهو مبعوث من رب العالمين وأبو الأنبياء والمرسلين؛ «حيث لم يصرح بأن العقاب لاحق له، وأنَّ العذابَ لاصقٌ به، ولكنه قال: ﴿أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾، فذكر الخَوْفَ والمس ونَكَّرَ العذاب، وجعل ولاية الشيطان ودخوله في جملة أشياعه وأوليائه أكبر من العذاب»[2].

إن ما يمكن ملاحظته على خطاب إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، أنه أطنب في الكلام؛ لأن المقام مقام نصح وإرشاد، يتطلب الإطالة والصبر على المخاطب، وتخير العبارات التي تؤثر في الأسماع وتقنع العقول، كذلك تجنب إبراهيم مخاطبة أبيه باسمه، وهذا من باب التأدب في مخاطبة الآباء، وهو ما يأمرنا به الدين الإسلامي الحنيف، فحتى الكافر منهم أمرنا أن نصاحبه في الدنيا معروفا، قال تعالى: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾﴾[3]. فالآية صريحة في ضرورة حسن معاملة الآباء، مع مراعاة المبدأ الإيماني: لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

أورد إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ في خطابه أداة النداء (يا) وهي تستعمل للقريب والبعيد لغرض التوكيد، حيث كرر النداء أربع مرات متتالية في مفتتح كل خطاب لأبيه، «إعادة ندائه بوصف الأبوة تأكيد لإحضار الذهن ولإمحاض

1) ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، 117/16.
2) الزمخشري، تفسير الكشاف، 19/3.
3) سورة لقمان، الآية 15.

النصيحة المستفاد من النداء الأول»[1]، ولاستمالته تحت مظلة عاطفة الأبوة، وأنه استعمل تركيب (يَـٰٓأَبَتِ) توددا واستعطافا.

تدرج إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في خطابه من خطاب الاستفهام الإنكاري، إلى خطاب الإغراء، ثم إلى خطاب الالتماس، حتى وصل إلى التحذير والتخويف، سالكا بذلك كل السبل والطرق لإقناع الأب بأسلوب مهذب، يتخذ من عاطفة الأبوة وسيلة وملاذا هاديا، يحصل هذا التودد والتوقير والتوسل على الرغم من أن إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ نبي مرسل من عند الله، له مقام النبوة وأنعم به من مقام، وآزر رجل كافر لا تربطه بإبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ سوى صلة الأبوة.

إذًا كل توقير واحترام يتجلى في خطاب إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لأبيه إنما يعود إلى وجوب احترام فكرة الأبوة بعيدا عن أي اعتبار آخر، وفي هذا عبرة أخلاقية لا تُضاهى.

المطلب الثاني: خطاب «آزر» لابنه إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

بَيّن الباحثُ كيف كان خطاب إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يتصف بالإطناب ساعيا من وراء ذلك إلى إقناع أبيه وزحزحته عن عذاب الله وترك عبادة الأصنام، والخطاب في مجمله وتفصيله اتسم بالأدب الرفيع والأسلوب الراقي في التخاطب، في حين نجد أن أباه «آزر» يخاطبه بجملة واحدة (آية واحدة)، وقد جاءت بأسلوب التهديد والتوعد بالرجم، يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾[2].

لقد ابتدأ «آزر» خطابه باستفهام إنكاري، وقدم الخبر على المبتدأ في قوله: ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾، فالهمزة للاستفهام تعجبا

1) محمد الطاهر ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، 115/16.
2) سورة مريم الآية 46.

واستنكارا، وراغب اسم فاعل مبتدأ يعمل عمل الفعل في رفع الفاعل، وهو هنا (أَنتَ) سَدّ مسد الخبر، وقدّم (رَاغِبٌ)؛ لأنه محط العناية والإنكار من أب إبراهيم؛ لأن الذي يعنيه ويهمه ويقلقه: رغبة إبراهيم عن آلهة أبيه، وتركه لها، بل وتسفيهها وشتمها؛ لأنها لا تنفع ولا تضر، ولا سمع ولا بصر لها[1]. ويجوز أن يكون ﴿رَاغِبٌ﴾ خبرا مقدما و﴿أَنتَ﴾ مبتدأ مؤخر.

أضاف «آزر» في أثناء قوله لفظ «الآلهة إلى ضمير نفسه إضافة ولاية وانتساب، إلى المضاف قصد تشريف المضاف إليه»[2]، وهذا أول علامات الكِبْر التي يتسم بها الكافر المعاند، ومن علامات كِبْره وجفائه أنه لم يطنب في كلامه كما أطنب إبراهيم حين كان يحاول إقناعه، فإبراهيم أثبت من خلال الإطناب أن أمر أبيه يعنيه وأنه مشفق عليه، وخائف عليه من غضب الله.

لقد بَيّن لنا الله سبحانه وتعالى في مواطن كثيرة من القرآن الكريم الفرق بين خطاب المؤمن وخطاب الكافر، فإبراهيم في خطابه لأبيه الجاهل يقول: (سلام عليك)، وورد قوله تعالى مبينا أخلاق المؤمنين في خطابهم للجاهلين بقوله: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا ٦٣﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغۡوَ أَعۡرَضُواْ عَنۡهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ لَا نَبۡتَغِي ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾[4].

يقابل هذا الأسلوب الراقي في التعامل تعامل الكفار مع المؤمنين، فنبي الله إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ لما أقنع أباه بالحجة الدامغة قابله هو بالعنف والشدة

1) إبراهيم رفيده وآخرون، معاني القرآن الكريم، 22/3.
2) محمد الطاهر ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير،118/16.
3) سورة الفرقان، الآية 63.
4) سورة القصص، الآية 55.

والجفاء في القول، وهذا هو ديدن الكفرة المتعصبين لأصنامهم كلما أفحموا بالحجة القاطعة لجأوا إلى استعمال القوة.

يصور هذه الحقيقة حوار إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ لقومه الوارد في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمۡ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ٦٥﴾[1]، ثم قال: ﴿أُفّٖ لَّكُمۡ وَلِمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٦٧﴾[2]، فعندما أفحمهم بالحجة لجأوا إلى استعمال القوة كما أخبر عنهم العليم: ﴿قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ٦٨﴾[3]، ونظير قوله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقۡتُلُوهُ أَوۡ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٢٤﴾[4]، وقوله عن قوم لوط لما أفحمهم نبيهم بالحُجَّةِ: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخۡرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٖ مِّن قَرۡيَتِكُمۡۖ إِنَّهُمۡ أُنَاسٞ يَتَطَهَّرُونَ ٥٦﴾[5].

ومما يؤكد جهل الكفار في خطابهم النص الوارد على لسان «آزر»، لقد كان من الواجب أن يقابل خطاب ابنه الخائف والمشفق على أبيه بخطاب يماثله في الرقة والتودد، ولكن اتبع أسلوب العناد والجفاء، فلم يطنب في القول مثلما فعل ابنه معه، فآزر لديه آلهة يعتقد فيها النفع والضر كان الأولى به أن يخاف على ابنه من غضبها، ويحرص على أن تمنحه نفعها، وهذا يستوجب عليه مقام إطناب يحاول من خلاله إقناع ابنه بأن يعبد تلك الآلهة خوفا عليه من غضبها، ولكنه لم يفعل، بل أجاب بعبارة موجزة محملة بالغضب والتهديد: ﴿لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ لَأَرۡجُمَنَّكَۖ وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا﴾.

1) سورة الأنبياء، الآية 65.
2) سورة الأنبياء، الآية 67.
3) سورة الأنبياء، الآية 68.
4) سورة العنكبوت، الآية 24.
5) سورة النمل، الآية 56.

ومن علامات الجفاء في خطاب «آزر»: «أنه استعمل النداء في قوله ﴿يَـٰٓإِبۡرَٰهِيمُۖ﴾ تكملة لجملة الإنكار والتعجب؛ لأن المتعجب من فعله مع حضوره يقصد بندائه تنبيهه على سوء فعله، كأنه في غيبة عن إدراك فعله، فالمتكلم ينزله منزلة الغائب فيناديه لإرجاع رشده إليه»[1].

ومن الجفاء أيضا أن «آزر» عند مناداته لإبراهيم سماه باسمه فقال: ﴿يَـٰٓإِبۡرَٰهِيمُۖ﴾ ولم يقل له «يا بني» مثلما فعل لُقْمان عندما كان يقدم النصح والإرشاد إلى ابنه: ﴿يَـٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ١٧﴾[2]، وهذه من الفوارق بين خطاب المؤمن المتتبع لهدي الله، وبين الكافر المعاند، العابد لحجر لا يضر ولا ينفع.

ويلاحظ المتأمل في جملة «آزر» أنه «قدم الخبر وصدره بالهمزة لإنكار نفس الرغبة، كأنها مما لا يرغب عنه عاقل، ثم هدده بقوله: ﴿لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ لَأَرۡجُمَنَّكَۖ﴾[3].

يورد ابنُ عاشور في تفسير قوله تعالى: ﴿لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ لَأَرۡجُمَنَّكَۖ وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا﴾، أن «آزر» هدد إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ «بعقوبة آجلة إن لم يقلع عن كفره بآلهتهم، وعقوبة عاجلة وهي طرده من معاشرته، وقطع مكالمته. والهَجْرُ: قَطْع المكالمة وقَطْع المعاشرة، وإنما أمر أبو إبراهيم ابنه بهجرانه ولم يخبره بأنه هو يهجره؛ ليدل على أن هذا الهجران في معنى الطرد والخلع إشعارا بتحقيره»[4]، في حين أن إبراهيم حين كان يخاطبه تجنب أن يسميه باسمه، بل يقول له

1) محمد الطاهر ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، 119/16
2) سورة لقمان، الآية 17.
3) محمد علي الصابوني، صفوة التفاسير، 648/2
4) محمد الطاهر ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير120/16.

مخاطبا: «يا أبت».

وعلى الرغم من كل هذا الجفاء والتوعد والوعيد الذي سمعه إبراهيم نجده في الآية التالية مباشرة يخاطب أباه ردا على تهديده ووعيده قائلا: ﴿قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيّٗا ٤٧﴾[1]. أي قال إبراهيم في جوابه: «أما أنا فلا ينالك مني أذى ولا مكروه، ولا أقول لك بعدُ ما يؤذيك لحرمة الأُبُوّةِ، وسأسأل الله أن يهديك ويغفر لك ذنبك»[2].

يقول الزَّمَخْشَرِيّ في تفسير قوله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ﴾: «يجوز أن يكون قد دعا له بالسلامة استمالة له»[3]. وهذا معناه أنّ رغبة الابن في أن يعود الأب إلى رشده تبقى حلم الابن المخلص المحترم لمفهوم الأبوة، فما زال في نفسه بصيص أمل بعودة الأب إلى سواء السبيل، حتى بعد تصريح الأب بكل ما صرح به من تهديد وما توعد به من وعيد، إذ ما زالت عاطفة الابن تجاه الأبوة تهيمن على خطابه، فيودع باحترام، ويدعو في توديعه، ويعد ويطلب المغفرة لأبيه أملا باستجابة الخالق له على منزلته عند الله.

وهذا المنهج الذي اتبعه إبراهيم عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ في دعوة أبيه إلى الرجوع عن عبادة الأوثان واتباع الحق هو المنهج الرباني الذي سلكه الأنبياء في دعوتهم أقوامهم إلى توحيد عبادة الله ونبذ ما سواه، فقد كان نوح عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ يدعو ابنه الكافر إلى عبادة الله ويلح عليه في طلب الصعود إلى السفينة حتى ينجو من الطوفان، ولم يتوقف عن هذا الدعاء إلا عندما أمره الله بذلك، وبين له أنه ليس من أهله وأنه عمل غير صالح، قال تعالى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٞ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ٤٥ قَالَ يَٰنُوحُ

1) سورة مريم، الآية 47
2) محمد علي الصابوني، صفوة التفاسير، 648/2.
3) تفسير الكشاف، 19/3.

إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ﴾[1].

وكذلك هو المنهج الذي سار عليه خاتم الأنبياء محمد ﷺ في الدعوة إلى دين الله، وتبين لنا كتب السيرة أنه عندما عاد الشاب اليهودي وهو مريض فقد دعاه إلى الإسلام فاستجاب لذلك فغمرت الفرحة النبي ﷺ، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «كان غلام يهودي يخدم النبي ﷺ، فمرض، فأتاه يعوده، فقعد عند رأسه فقال له: أسلم، فنظر إلى أبيه وهو عنده، فقال: أطع أبا القاسم، فخرج النبي ﷺ وهو يقول: الحمد لله الذي أَنْقَذَهُ من النار»[2].

فالمبدأ في الدعوة إلى طريق الهداية لا يعرف اليأس، بل بارقة الأمل دائما تلوح في الأفق، وعلى الداعيةِ أنْ يبذل قُصارى جهده، وما التوفيق إلا من عند الله العلي القدير، فالقلوب بين أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء، عن شَهرِ بنِ حَوْشَبٍ قال: «قُلْتُ لأُمِّ سَلَمَةَ ما كان أكثَرُ دعاءِ النَّبيِّ ﷺ فقالت: يا مُقلِّبَ القلوبِ ثبِّتْ قَلْبي على دِينِكَ، قُلْتُ: يا رسولَ اللهِ: ما أكثَرَ دُعاءَكَ هذا! قال: إنَّ القلوبَ بَيْنَ أُصبُعَيْنِ مِن أصابع الرَّحمنِ ما شاء أزاغ وما شاء أقام»[3]، يقول الحق تبارك وتعالى. ﴿مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيّٗا مُّرۡشِدٗا ١٧﴾[4].

المطلب الثالث: خطاب الأب المؤمن لابنه المؤمن:

لكي تبدو خطوط خطاب الكفر المفارقة لخطاب الإيمان أكثر وضوحا في مفارقتها، سوف نعرج على خطاب إبراهيم لابنه إسماعيل عليهما السلام حين صار إبراهيم أبا.

1) سورة هود، الآية45-46.
2) صحيح البخاري، 1356.
3) الطبراني، المعجم الوسيط، 164/9.
4) سورة الكهف، الآية17.

قال تعالى في محكم التنزيل: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْيَ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰۚ﴾[1]. ومعلوم أن رؤيا الأنبياء وحي من عند الله، وليست من أضغاث الأحلام التي تعتري عموم البشر، ولا من الأحاديث التي يرويها بعض الناس لبعضهم لغرض التسلية وإمضاء الوقت.

هذه الرؤيا الربانية ابتلاء للأب والابن معا، فالأب بعد أن بَشَّرَه الله بهذا الابن ورزقه إياه يأمره بذبحه. أمر من الصعب أن يتصور الإنسان وقعه على نفس الأب، بل يصعب تصور وقعه على أي نفس بشرية، وكذلك الأمر بالنسبة للابن الذي يُطلب منه أن يجود بنفسه ويترك الدنيا بكل مباهجها التي يراها شاب في مقتبل العمر نفسه كلها آمال وطموحات وخيال وردي.

لقد كان جواب إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ لأبيه: ﴿قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٠٢﴾.

إنّ طلب إبراهيم من ابنه إسماعيل هو طلب ذبح، فهو أضخم ما يمكن أن يقدمه الإنسان في مذبح التضحية، فكانت الإجابة بالطاعة وعدم الممانعة، وجاءت بهذا الأسلوب المهذب اللطيف: «بأن ابتدأ الجواب بالنداء واستحضار المنادى بوصف الأبوة وإضافة الأب إلى ياء المتكلم المعوض عنها بالتاء المشعر تعويضها بصيغة ترفق وتحنن، وفي خطاب «يا بني» على سبيل الترحم، وقال الابن: «يا أبت» على سبيل التوقير والتعظيم»[2]، فحين يُطلب من إسماعيل أن يوافق على الذبح يجيب بهذه الصيغة المؤدبة امتثالا لطلب الأب المجسد لأمر الله، وهذه الطاعة والامتثال لا يمكن صدورها إلا من نفس مؤمنة بقضاء الله وقدره، ومصدقة حق التصديق بما جاء به الأنبياء من عند رب العزة، كيف لا! والمجيب نبي ابن نبي وكلهم مصطفون من عند

1) سورة الصافات، الآية102.
2) الألوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، 172/23

الله.

يقابل هذا الخطاب طلب الابن «إبراهيم» من الأب «آزر» أن يترك عبادة الأصنام وهو طلب فيه مصلحة، ترك لعبادة الأصنام ونجاة من غضب الديان، فيجيب بما أجاب من عدم امتثال وتهديد ووعيد.

في خطاب سيدنا إسماعيل عَلَيۡهِ السَّلَامُ لأبيه لمحة راقية تتمثل في دفع فعل الذبح عن إرادة أبيه، فقد صوَره رجلا مأمورا، وهو في فعله هذا ليس سوى أداة لتنفيذ أمر الله في الذبح، وليس صاحب قرار الذبح؛ ليخفف عن أبيه وطأة المسألة، ولكي لا يصوره قاسيا قاتلا، فعدل عن جوابه أن يقول: «اذبحني» إلى قوله: ﴿ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ﴾، للجمع بين الإذن وتعليله، أي أذنتُ لك أنْ تذبحني لأنَّ الله أَمَرَكَ بذلك، ففيه تصديق لأبيه وامتثال لأمر الله.

ويؤكد هذا الامتثال الآتي من الجواب الذي قدمه بتمهيد، فجملة ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٠٢﴾[1] هي الجواب؛ لأنّ ما قبلها تمهيد للجواب، فبعد أن حثه على فعل ما أمر به، وعده بالامتثال وبعدم الجزع، وبأنه سيكون صابرا، وفي كل ذلك تخفيف من عبء ما عسى أن يعرض لأبيه من الحزن لكونه يعامل ولده بما يكره، وهو وعد وقد وفى بوعده الذي وعد به، وشكره الله عليه في قوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ٥٤﴾[2].

تقدم الخطابات السابقة التي استعرضها الباحث عبرة أخلاقية تعيد لعلاقة الأب بالابن والابن بأبيه اعتبارها في زمن تموج فيه التيارات والقيم الثقافية الوافدة تموجا عنيفا يهدد كل مستويات أشكال العلاقات الأسرية،

1) سورة الصافات، الآية 102.
2) سورة مريم، الآية 54.

وكل أشكال الخطاب الأخلاقي المعبّر عن تلك الرؤى الدخيلة الوافدة.

كذلك تكشفُ لنا المشاهد السابقة نوعين من الخطاب:

- نوعًا ينبع من قلب مؤمن يحرص كل الحرص على المحافظة على الروابط الأسرية، واحترام هذه التركيبة الاجتماعية التي أرادها الله لعباده.

- وآخر ينبع من قلب كافر لا يهمه الآخر مهما كانت صلة قرابته مادام مخالفا له في معتقده.

فغواية الشيطان حين تجتاح قلب الإنسان يتملكه الكفر فيأتي خطابه معبرا عما يجول في تلك النفس، طافحا بالعنجهية والمكابرة التي تُقْصِي كل شيء، بما في ذلك العواطف الإنسانية الغريزية التي هي سر وجود الإنسان، وعلى رأسها عاطفة الأبوة المقدسة.

الخاتمة:

لقد كانت رحلة هذا البحث تدور حول أنواع الخطاب وأشكاله، بغية أخذ العبرة من هذه الخطابات التي حكى عنها القرآن الكريم ومثل لها بخطاب نبي الله إبراهيم وهو في صورة الابن الذي يسعى إلى نجاة أبيه وتخليصه من عبادة الأوثان، واتباع ما أمر به الديان، من إخلاص العبادة لله الواحد القهار، وفي الدور الثاني لإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: وهو أب يخاطب ابنه ويطلب منه ما أمره الله به من ذبحه، حيث يصور لنا القرآن الكريم بعبارات بليغة ردود الأب الكافر «آزر» عن طلب الابن المؤمن، وتقابلها صورة إجابة الابن المؤمن بقضاء الله وقدره - إسماعيل - لأبيه المطبق لما أمره الله به.

من المشاهد التعبيرية السابقة يمكن استخلاص النتائج التالية:

1. صَوَّرَتْ لنا الآيات القرآنية الواردة في هذا البحث المواقف الإنسانية التي وقفها سيدنا إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، والظروف التي كابدها من أجل

الإصلاح والدعوة.

2. العلاقة المتينة بين أفراد المجتمع تحتاج إلى عقيدة سليمة.
3. المؤمن يجعل تعاليم الدين هي الأساس الأول في التعامل مع الآخرين.
4. العلاقة بين أفراد الأسرة المؤمنة قوية ومتينة تسودها الألفة والمحبة، ولغة التعامل فيما بينهم عالية المستوى تتسم بالاحترام المتبادل وتخبر عن أخلاق قويمة ولغة رصينة.
5. تفكك العلاقات الأسرية في المجتمع الذي يبتعد عن دين الله.
6. قلب الكافر يملؤه الحقد والبغض لمن يخالفه في المعتقد حتى ولو كان هذا المخالف هو ابنه.
7. مَكارِمُ الأخلاق تنبع من اتّباعِ الحَقِّ تبارك وتعالى، وسُوؤها يسببه البعد عن اتباع ما أمر به الله والهجران لدينه.

التوصيات:

1. ضرورة العمل على إصلاح العلاقات الأسرية فهي الطريق الموصل إلى إصلاح المجتمع.
2. إذكاء الروح الدينية لدى أفراد المجتمع والحث على اتباع مكارم الأخلاق.
3. إعادة النظر في مناهجنا الدراسية وتوظيفها لخدمة الدين وزرع مكارم الأخلاق.
4. التركيز في خطابنا الديني على بث مكارم الأخلاق والاعتناء بها بغية إصلاح الرابطة الأسرية وتقوية أواصر الوُدّ والمَحَبّةِ بين أفرادها.

ثبت المصادر والمراجع

1. القرآن الكريم.
2. تفسير التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر.
3. تفسير الكشاف، محمود بن عمر بن محمد الزمخشري، ط؛ دار الكتب العلمية، بيروت، 1995.
4. روح الدين الإسلامي، عفيف عبدالفتاح طبارة، دار العلم للملايين 1995.
5. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني محمود شهاب الدين الألوسي.
6. صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل البخاري.
7. صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني، دار الكتب العلمية، بيروت 1999.
8. معاني القرآن الكريم، إبراهيم رفيّده وآخرون، شركة الآن للطباعة والنشر2001.
9. المعجم الأوسط، سليمان بن أحمد الطبراني.